

أعمال ثربانتس

ثربانتس

الرجل الزجاجيّ

ترجمة وتقديم: عبدالهادي سعدون

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا



تقديم
ثربانتس والروايات القصيرة

كتب ميغيل دي ثربانتس الروايات المثالية (Las Novelas Ejemp-lares) الاثنتي عشرة بعد انتهائه من الجزء الأول من روايته المعروفة عالمياً (دون كيخوته)، والتي تُعدّ أول رواية معاصرة، والمؤسسة للرواية الأوربية والعالمية الحديثة في آن واحد. صار من البديهيّ لدى القارئ العربي ذكر (ثربانتس) مقروناً بشكل دائم برائعته الكبرى (الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانتشا) أو (الدون كيشوت) كما هي معروفة اختصاراً في العالم أجمع. لكن مؤلفها الإسباني ميغيل دي ثربانتس (Cervantes ١٥٤٧-١٦١٦) ترك لنا أعمالاً أدبية لا تقل قيمة وثراء عن عمله الدون كيشوت كما عليه في الروايات المثالية هدفِ ترجمتنا هنا، وكذلك في أعمالٍ مسرحية أخرى، ليشكّل مع كُتاب آخرين قمة آداب عصرهم المعروف بالعصر الذهبي لإمبراطورية عظمى هي الإمبراطورية الإسبانية التي امتدّ مجدُها من القرن الخامس عشر حتى بدايات القرن العشرين.

من المعروف اليوم، وبفضل العثور على وثائق ومستجدات عن حياة ثربانتس وعوالمه الأدبية، أن الكاتب لم يَحِد عن الواقع كثيراً، فالعديد من شخوص رواياته الخالدة قد رافقته في حياته وتعرف عليها من نماذج بشرية. وهو في هذا لم يخرج عن نموذج الكاتب الواقعي في عصره، غير أن تجديده جاء في النمط الروائي نفسه، وفي تعدد الصور الحكائية، وفي تناول الفرد والمجتمع، وفي لغته التهكمية والتجديدية الغريبة وغير المعروفة لدى كُتاب زمانه. ومن المسائل المهمة التي تجعلنا ندرك أهمية حياة وخبرة الكاتب ومدى إخلاصه للعمل الأدبي، هو اهتمامه الكبير والذي لم يفارقه في نتاجه الروائي خاصة التركيز على مصائر بشرية وأزمنة تاريخية حساسة، مع قراءة واعية محكمة تمنحنا نظرة نقدية متقدة عن البشر وأهوائهم وهمومهم.

لقد خاض ثربانتس في مهن ومغامرات مختلفة، وشارك في حروب ونزاعات، وعاش تجربة الأسر وعمل في أعمال متنوعة لسدّ الرمق وإعالة عائلة كان فيها الرجل الوحيد لعدة نساء. كلّ هذا قبل أن يسطّر لنا رائعته (الدون

كيخوته) تليها (الروايات المثالية). والحال لم يختلف كثيراً بعد شهرته، على الأقل في أوربا آنذاك، إذ عانى في سنواته الأخيرة من الفقر، وتجاهلته المحافل الأدبية بسبب الضغينة والغيرة. وهو في هذا لا يختلف عن أسماء معروفة في الفنّ والأدب، لم تحصل على عوائد شهرتها إلا وهي في القبور.

كتب ثربانتس رواياته لتكون شهادة على عصر إمبراطورية عملاقة وصلت حتى أميركا واستمرت في غزواتها وعظمتها حتى نهايات القرن التاسع عشر. في كتاباته، جسّد ثربانتس الأبهة والعظمة جنباً إلى جنب مع التحلل الاجتماعي والفساد ومحاكم التفتيش الكنسية والقسوة البشرية في ظلّ أزمنة متسارعة ومتصارعة حتى يومنا هذا.

ثربانتس بلا جدال هو «معاصرنا» الأول، ولا احتجاج بين النقاد والقراء على ذلك. كتاباته، على وجه الخصوص (الدون كيخوته) و(الروايات المثالية) هي الكتب الحقيقية التي لا تنتهي بصدورها، بل ببقائها طرية حيّة حتى لو مرت عليها أزمنة طويلة وتغيرت طبائع البشر وأزمنتهم. ومؤلفات ثربانتس هي الكتب الأكثر قراءة والأكثر طباعة وترجمة، ويكاد في هذا أن يتفوق حتى على الكتب المقدسة بعدد النسخ ورواجها الشعبي والنقدي. بل أن ثربانتس بالنسبة للنقاد وقطاع واسع من القراء ومن مختلف الجنسيات، يُعدّ الكاتب الإنساني الأول والروائي الأعظم في تاريخ الأدب، فكتاباته لا تزال لصيقة بأحلامنا وطموحاتنا، بل وحتى بخساراتنا المتكررة.

هذه الروايات المثالية القصيرة التي نقدمها تباعاً وفي كتب مستقلة الواحدة بعد الأخرى، كتبها ثربانتس بفترات متباعدة بين الأعوام ١٥٩٠- ١٦١٢ ونشرها عام ١٦١٣ عند ناشره (خوان دي كويستا) في مطبعته في مدريد بعد النجاح الكبير الذي حظي به الجزء الأول من الدون كيخوته (١٦٠٥) وقبل سنتين من نشر الجزء الثاني من الدون كيخوته (١٦١٥). وفي مقدمة الروايات المجموعة في كتاب واحد عند صدورها يذكر ثربانتس بأنه كتبها ليترك للأجيال ما يعظهم في حياتهم «إذ لا تخلو أية رواية من هذه الروايات على نموذج أو مثال أو عِظة أو فائدة أخلاقية»، ولهذا السبب أسماها بالروايات المثالية أو النموذجية، فالهدف الأعظم الذي جعله يكتبها هو توقيعه

على مثال يساعد المجتمع والقارئ للنظر للأمور بنظرة أخرى. وثربانتس على أية حال ينجح في أغلبها بمنحنا تلك العظة والسمات المثالية التي رغب بتنويرنا بها، ولكن ليس كل رواياته امتلأت بهذه الأمثلة والنماذج، بل أن بعضها كما سيرى القارئ لا تمتّ بصلة لهدف ثربانتس المعلن عنه في تقديمه للروايات، ولعله هنا أيضاً قد تقصّد الخروج عن النمطية المثالية حتى لا يتشبع بها القارئ ويميل عنها للسبب هذا أو ذاك.

الشيء الأهم الآخر الذي يطبع متن الروايات المثالية وهو ما ذكره المؤلف في المقدمة العامة أيضاً هو أنه أول من كتب هذا النمط من الروايات القصصية باللغة الإسبانية، وهذا تأكيد موثّق لا غبار عليه. إذ أن جلّ الروايات المعروفة بالروايات القصيرة أو النوڤيلا (Novella) المستوردة والمتأثرة بالنموذج الإيطالي السابق للنموذج الإسباني، التي نُشر أغلبها بالإسبانية سابقاً، أما عبارة عن محاكاة فجة لرواية النوڤيلا الإيطالية، أو ترجمة لها من الإيطالية إلى الإسبانية دون أية تغييرات أو تنويعات دالّة. ومن هنا يحسب لثربانتس قصب السبق في هذا المضمار، بل ويمكن أن نزيد عليها أنه قد أدخل الكثير من عناصر الواقعية المحلية الإسبانية ومعضلاتها وسماتها وطبيعة بشرها ومجتمعها، والتي زخرت بها الحياة في إسبانيا، لتكون المسرح الحقيقي والأساسي لمعظم رواياته المثالية.

من المعتاد بين نقاد أعمال ثربانتس والأدب الإسباني أن يصنفوا روايات ثربانتس المثالية إلى قسمين رئيسيين، مع تداخل البعض من عناصرها مع عناصر المجموعة الأخرى دون عينة كبرى لتصنيفها ضمن هذه المجموعة عن تلك. لقد قسموها إلى قسمين: الرواية ذات الصبغة المثالية، وأخرى ذات الصبغة الواقعية. والمثالية منها هي الأقرب للنموذج الإيطالي والتي تتميز بمحتواها الرومانسي العاطفي وشجن علاقات الحب والمحبين وهم شخوص نمطية لا تتصاعد وتيرة تطورها النفسي، وتكاد تكون أكثر بعداً عن محيط مجتمعها وتتميز بأسلوب، وإن كان رصيناً، إلا أنه يفتقر للحيوية المطبوع بها أسلوب ثربانتس المعتاد. كما يعتمد سياقها العام على المصادفات الغريبة والنهايات غير المتوقعة وإن كانت لا تفتقر لروح ثربانتس الحكائية. تدخل في هذا القسم الأول الروايات

الخمس التالية: العاشق المتحرر El amante liberal، الفتاتان Las dos doncellas، الإسبانية الإنجليزية La española inglesa، السيدة كورنيليا La señora Cornelia وقوة الدم La fuerza de la sangre. أما القسم الثاني فيضم الروايات ذات الطابع الواقعي المتمثل بالشخوص والمناخات الوصفية الحيّة بوازع نقدي متعدّد الأصوات في أحيان كثيرة. ويتميز أسلوبها ببساطة الحبكة والثيمة والإكثار من عروض المشاهدات اليومية المباشرة بلغة قوية وسريعة ومرهفة. وهي الروايات السبع التالية: رينكونيته وكورتاديو Rinconete y Cortadillo، الرجل الزجاجي El licenciado Vidriera، الغجرية La gitanilla، غيور أكسترامادورا El celoso extremeño، الخادمة الشهيرة La ilustre fregona، الزواج الخادع El casamiento engañoso وحديث كلبين El coloquio de los perros.

والحقّ أن قراءة هذه الروايات مجتمعة لا يمنحنا ذلك التصوّر الأول بشأن تقسيمها كلٌ حسب صبغتها، لأننا سنتواجه بمعالم وملامح متعددة مشتركة بين روايات الصنف الأول منها مع الصنف الثاني، وهو ما دفع بالعديد من النقاد لوضعها في فئات ثلاث بدلاً من اثنتين، ولكن حتى هذا التصنيف المتشعب يجعلنا في بُعد عن مغزى وهدف ورغبة ثربانتس نفسه في كتابة هذه الروايات القصيرة. الروايات بمجملها تدخل ضمن حيّز الروايات القصيرة أو القصص الطويلة، والبعض منها أقصر من غيرها، وتتميز رواية (الغجرية) بكونها الأطول بينها. بينما تتداخل روايتا (حديث كلبين) و(الزواج الخادع) بكونهما قصتين في رواية واحدة، أي الواحدة منهما بمثابة مدخل روائي مطوّل للشروع بقراءة الرواية التالية، مما دفع أغلب الطبعات الإسبانية لمزجهما في كتاب واحد أو عدّهما رواية واحدة بعنوان موحد أو عنوانين متشابكين.

عبر هذه الروايات التي تصدر تباعاً كلّ واحدة على حدة، إنما نترجمها ونقدمها للقارئ العربي كعينة مهمة من أعمال ثربانتس صاحب رائعة الدون كيخوته، وهي روايات لا تقلّ روعة عن قيمة العمل الأكبر، بل تشترك مع أعماله الأخرى بالهم الإنساني نفسه والقدرة الخارقة للقلم الروائي على تطويع الأحداث اليومية والتاريخية لتلك الحقبة إلى قصص ومسرحيات وروايات تكشف الجوانب الخفية

للنفس البشرية في صراعها الدائم للبحث عن الهدف الأسمى للحياة واحتمالاتها المتعددة.

هذه الرواية: الرجل الزجاجيّ

عنوان الرواية El licenciado Vidriera حرفياً هو (طالب الجامعة المتزجّج) أو صاحب الإجازة الجامعية الزجاجيّ، بحكم أن من يصل الجامعة ويدرس فيها يُطلق عليه صاحب إجازة ايضاً، أو يمكن أن يكون (رجل قُدّ من زجاج)، ومنها فضّلنا أن نطلق عليها ما وجدناه أفضل ترجمة للعنوان وهي (الرجل الزجاجيّ). والرواية كاملة لها علاقة كما سترون بحكم ما يُهيأ لبطلها من أوهام ورؤى تصيب عقله، لأنه يحسّ بنفسه مصنوعاً من زجاج قابل للكسر والتهشّم بأقل ضربة أو لمسة محتملة.

عبر تفاصيل شخصية الرجل الزجاجيّ حاول ثربانتس، كحال رواياته الأخرى، أن يكون مراقِباً لما يجري في عصره، وأن يضع بالتفصيل آراءه على لسان بطل الرواية بلا خشية من نقد أو ملاحظة شديدة القسوة على أفراد ورجال ومهن عصره. لقد استغلّ فكرة الصعود بالجنون والخروج عن المألوف بوضع كلّ شيء في مرصد النقد طالما أن النقد والآراء ينطق بها رجل يعدّه مجتمعه مجنوناً ومخرفاً ولا ينطق إلا عن هراء، وهو ما استغلها ثربانتس للتعبير عن فكرة المجنون العاقل أو (البهلول) في تراثنا العربي ونماذجها العديدة المنتشرة في الكتب والحكايات المعروفة.

لقد عدّ النقاد والكتاب رواية ثربانتس هذه كونها أول مثال عن رواية التحول أو التقمص التي تصيب البشر لتعرضهم لمحن وجودية وإنسانية، كما هو عليه الأمر في رواية التحول أو المسخ لمؤلفها كافكا في القرن العشرين. ورواية ثربانتس إنما تُعدّ من النماذج الأولى التي تصف أحوال رجل يعاني محن الحياة والبغض والضغينة ليصل إلى أعلى درجة من التقمص لاعتقاده أنه قُدّ من زجاج يمكن كسره في أية لحظة.

بطل الرواية، رغم فقره المعلن، إلا أنه بعصاميته وتوقه للوصول إلى القمة يُجبر الآخرين على قبوله وذلك لتمتعه بالذكاء والفطنة والحذاقة. وهو في كلّ هذا لا يتخلص من واقعه إلّا بالعمل، ولا يصل إلّا عندما يجرّب كلّ إمكانيات الحياة في عصره. ثربانتس كعادته يضعنا في كلّ رواية إزاء معضلة إنسانية، وهو في كلّ مرة يصعّد من الأحداث حتى أعماقها الدفينة ليعود بنا مجدداً للواقع البشري في ظلّ ظروف لا يكون فيها الإنسان سوى عنصر ضئيل في

التغيير والمشاركة والتقييم.
(المترجم، مدريد عام ٢٠١٩)





الرجل الزجاجيّ

فيما كان طالبان من علية القوم يتمشّيان عند ضفّة نهر تورميس، التقيا بفتى يرتدي ملابس الفلاحين وهو يغط بالنوم أسفل شجرة. وحسب ما رأيا فيه فقد كان فتى لا يتجاوز عمره الحادية عشرة. أرسل الطالبان خادمهما لإيقاظه، وعندما استيقظ سألاه من أية جهة أتى وما الذي يفعله نائماً لوحده في العراء. أجابهما الفتى أنه نسيَ اسم مدينته وهو في طريقه إلى مدينة سلمنكا لعله يعثر على سيّد يقوم بخدمته مقابل أن يساعده في إتمام دراسته. سألاه أن كان يعرف القراءة، فأجابهما بنعم، والكتابة أيضاً. حينها قال له أحدهما إنه ليس نسياناً هذا الذي أطبق عليك كي تنسى مدينة نشأتك.

فرد عليه الفتى: «لا ذكر للمدينة ولا لوالديّ قبل أن أحقّق ما يمكنني أن أشرفهم به».

«وما الذي ترغب في فعله كي تشرفهم به؟»، سأله أحدهما.

«دراستي»، أجاب الفتى، «وأن أصبح شهيراً فيها، لأنني سمعت ذات مرة أن الرجولة تصنع معدن رجال الدين».

بهذه الإجابة تعلّق الطالبان به وعرضا عليه مرافقتهما وتقديم المساعدة له بالدارسة وفق تقاليد تلك الجامعة المتّبعة مع الخدم(1).

أخبرهما الفتى أن أسمه هو توماس روداخا، وهو ما جعل سيّديه يظنان من اسمه وطريقة ملبسه أنه، ولا شك، ابنٌ لفلاح فقير.

بعد بضعة أيام ألبساه الرداء الأسود(2)، وبظرف أسابيع قليلة أبدى توماس نباهة لا تُضاهى في خدمته لهما، كما كان مطيعاً ودقيقاً وحريصاً بالوقت نفسه على أن لا يفقد أية فرصة للدرس. بدا وكأن لا شيء أمامه سوى خدمتهما. كان يحركه هدف خدمة سيديه بحرص، على الرغم من أنهما لم يعاملاه على أنه خادم، بل رفيق لهما.

ختاماً، وبعد أن مرّت ثمان سنوات معهما، أصبح أشهر من علم في الجامعة بفضل نباهته وذكائه العاليين، وكذلك بقربه من الجميع وصداقته لهم. كانت دراسته الأساسية هي القانون، ولكنه كان ميالاً للآداب الإنسانية. متمتعاً بذاكرة قوية حاضرة دوماً مما جعله فاهماً لكل حالة حتى صار شهيراً بها وفيها. ووصل الحال أن أكمل

سيداه دراستهما ورحلا إلى مسقط رأسيهما، ولم تكن سوى مدينة من أفضل مدن الأندلس، وقد قررا أن يحملا توماس معهما. وبقي معهما بالفعل بضعة أيام. لكنه لم يتخلص من شوقه لروعة العالم الجامعي ورغبته في العودة لأيام الدراسة في سلمنكا (وهي المدينة التي تُسحر كلّ من مرّ بمقاعدها، كما أن كلّ من درس فيها كان يحلو له البقاء فيها)، فكان أن طلب من سيديه السماح له بالعودة. ولمّا كان الرجلان متحرّرين ونبيلين، فقد منحاه الإذن بالمغادرة، ودبّرا له ما يكفيه لمعيشة ثلاثة أعوام كاملة دون أن يحتاج لشيء.

فكان أن ودّعهما مُعبّراً بكلماته عن مدى امتنانه لهما، ومن ثم غادر مالقا (وهي أرض سيّديه)، منحدِراً من ثامبرا في طريقه إلى أنتيكويرا، حيث التقى رجلاً عليه سيماء النبلاء، يمتطي جواداً وقد ارتدى خلّة الفرسان الرسمية، يرافقه خادمان على جوادين كذلك. فالتحق بهم بعد أن عرف أنهم في الطريق نفسه. وكان أن أصبحا رفيقَي سفر يتبادلان شتّى المواضيع. وبعد سويعات انتبه الفارس لطباع توماس المتفرّدة ونباهته. فما كان منه إلا أن صار يعامله بوقار، وأخبره أنه ضابط في مشاة صاحب الجلالة، وأنه يقوم بتجنيد المتطوعين هناك في أراضي سلمنكا. من ثم بدأ الفارس بمدح الحياة العسكرية، وروعة العيش في مدينة نابولي(3) وجمال مدينة باليرمو وفخامة ميلان والاحتفالات الهائلة في لومبارديا، وروعة الأطعمة في فنادقها من مآكل وحلوى: جهّز المائدة أيها المضيّف، وتعالَ هنا أيّها الوغد وهات الحساء والطيور ومعجنات مانيغولدو والبولاستري والمعكرونة(4).

رفع الفارس حياةَ الجندي الحرّة وما يتمتع به في إيطاليا إلى عنان السماء. لكنه لم يخبره عن برد الحراسات ولا خطر السطو ولا رعب المعارك ولا الجوع في أزمنة الحصار ولا هلع الألغام وأشياء من هذا المنوال عانى منها واعتاد عليها كلّ من عاشها، إضافة لثقل الجندية نفسها. بالمختصر، ما قاله له من أشياء رائعة جعلت من تحفّظ توماس روداخا يتهاوى، وصار راغباً في الالتحاق بتلك الحياة التي لا وصف أفضل لها سوى أنها أقرب للموت فعلاً.

الكابتن «دييغو دي بالدبيا» وهذا اسمه، كان مسروراً لحضور وبداهة وتعلق توماس بالأمر، لهذا رجاه أن يرافقه

إلى إيطاليا فيما لو شاء رغبة وفضولاً برؤيتها، وعرض عليه أن يشاركه مائدته، ولو كان ضرورياً حاملاً لرايته التي سيتسلمها من الضابط المكلّف بها فور وصوله.

لم يتعنّت توماس أو يقاوم هذه الدعوة بعد أن فكر للحظات بأنها ستكون فرصة طيبة لزيارة إيطاليا وأراضي الفلاندس(5) وبلداناً أخرى غيرها، كما أن الرحلات الطويلة ستزيد من رصيده ومنافعه خبرة، وتعمّق لدى الرجال معارفهم وتوسّع آفاقهم. كما أنه حسب غيابه بهذه الرحلة لمدة ثلاث أو أربع سنين على الأكثر لن تعيق طموحاته بالعودة لإكمال دراسته، في ما لو أضيفت لسني عمره القصير. ولأنه وجد الأمور تسير وفقاً لهواه، فقد أخبر الفارس بقبوله العرض عن طيب خاطر شرط أن لا يُجبره على الانخراط في الجندية وأن لا يُلزمه بالتشبث بالراية وعدم الفكاك منها. حاول الفارس بشدة حثّه على التسجيل في سلك الجندية للتمتع بمرتبها الشهري والحصول على هبات ومكاسب أخرى غيرها، ثم وعده أنه لن يبخل عليه بأية إجازة يطلبها، وضمن له حقّ التسريح من الجندية متى ما شاء.

لكن توماس قال له:

«لو وافقتك يكون ذلك بالضد من طبيعتي والتزامي بالوعود. كما أنني لو وافقت سأخالف ضميري وما يمليه عليك ضميرك سيدي الفارس. أنا أفضل حريتي غير المقيدة بأي التزام».

«هذا لأنك مسؤول عن أفعالك، ولأن ضميرك حي»، أجابه الفارس، «وهذا يتناسب ورجل الدين لا مع الجندي. لكن كن واثقاً أن ما تختاره أوافقك عليه، وأرجو أن نكون صديقين أبديّين، ورفيقين أينما حللنا».

تلك الليلة أمضوها في آنتكيرا، وبعدة أيام من المسير وصلوا إلى تجمع الفرقة المشكّلة حديثاً. اتجهت الفرقة الى ميناء كارتاخينا بعد أن انضمت لها فرق أربع أخرى، وكانوا جميعهاً يستريحون في الفنادق والقرى التي يمرّون بها في طريقهم. لاحظ توماس وهم في الطريق إلى كارتاخينا أشياء عديدة كانت مجهولة بالنسبة له: السلطة الكبرى التي يتمتع بها مسؤولو الإمدادات والتمويل، وهيمنة وعبث البعض من القادة، ثم تذلّل وخضوع أصحاب الفنادق والنزل، مكر ولؤم المتصرفين بأرزاق الجنود، وكيفية دفع البدل تهرّباً من الجندية، وخسة

وبذاءة المستجدين وما يحدث بينهم من خصومات إثناء فترات الاستراحة، والإفراط في طلبيات علف الحيوانات. وباختصار، فإن العسكر يقومون بعمل كلّ ما يرغبونه دون حساب للناس ولا مراعاة لمشاعرهم.

خلع توماس إثناء ذلك ملابس الدراسة وأرتدى عوضاً عنها ملابس زاهية الألوان، لأنه اختار طريق (يسوع) كما يقال. ولم يحمل معه من الكتب الكثيرة سوى كتابين احتفظ بهما في عليقته وهما (ساعات مع سيدتنا العذراء) وآخر لـ (غارثيلاسو)(6). وصلوا إلى كارتاخينا متأخرين وأبطأ مما كانوا يرغبون، وذلك لأن دور الاستراحة كانت عامرة بما لذ وطاب، وما استجدّ من شتى الأشياء الرائعة.

من هناك ركبوا في أربع سفن نابولي، وقد لاحظ توماس روداخا الحياة الغريبة في تلك الدور البحرية والتي كانوا يمضون فيها الوقت بالصراع مع البراغيث وسرقات العتاة منهم واستياء البحارة وعبث الفئران ودوار البحر. كان قد أصابه الرعب من العواصف الهوجاء خاصة في خليج ليون. وقد أطاحت بهم اثنتان: الأولى ألقت بهم حتى شواطئ كورسيكا، والأخرى أعادتهم إلى تولون في فرنسا. أخيراً وقد قضوا الليالي دون نوم، مبتلين وبعيون متورّمة، وصلوا مدينة جنوة الرائعة وقد أرست السفن في مينائها. بعد زيارة قصيرة لإحدى الكنائس، جمع قائد الحملة كتيبته رفقة زملائه وتوجه إلى أحد الفنادق، حيث سيكون بوسعهم الاستراحة والاحتفال ونسيان كلّ العواصف الهائجة التي أقلقت راحتهم.

وهناك تعرفوا على كلّ أنواع النبيذ: طراوة التريبيانو ولذاعة المونتيفريسكون وشدة الآسبيرينو، وكرم النوعين اليونانيين كانديا وسوما وعظمة صنف الأنواع الخمسة، حلاوة ورقّة سينيورا غوناشا، ولذعة شينتولا الرعوية، ومع حضورها كلها لا وجود لصنف منها بسوء الرومانيسكو. وبعد أن شرح المضيف كلّ هذه الأنواع المختلفة من النبيذ، قام بطريقة لا أفضل منها، بالتعريف بلا كلمات ولا تخطيط بل بواقعية وصدق عارضاً للشرب أنبذة المادريجال والكوكا والآلياخوس وكلها من مدينة ثيوداد ريال، ومكملاً الابتسامة بأسكيبياس وآلانيس وكاثيا وغوادالكانال وممبريا، دون أن ينسى ريبادابيا وديسكارغامريا. وأخيراً ما ذكره المضيف من أنواع الأنبذة بدا وكأن ما في قبوه يفوق حانة باخوس(7) نفسه.

كما أعجب توماس الطيب بمرأى جدائل الشقراوات من نساء جنوة، وبظرافة وحسن رجالها، بجمال المدينة المدهش التي بدت وكأن صخورها المحيطة بالبيوت مطعمة بالذهب والجواهر. في اليوم التالي ركبت الفرق في السفن المتوجهة إلى بيامونتي، لكن توماس لم يشأ المضي معهم في رحلتهم، وإنما الذهاب في الطريق البري مروراً بروما ونابولي كما رغب وشاء، ومن بعدها حتى البندقية ومن لوريتو حتى ميلان وانتهاء ببيامونتي كما قال للفارس دييغو بالدييبا، وأن يلتقيهم هناك، هذا أن لم يرحلوا قبل ذلك إلى الفلاندس.

بعد يومين ودّع توماش الفارس، وبظرف خمسة أيام كان قد وصل فلورنسا وكان قبلها قد شاهد لوكا وهي مدينة صغيرة وإن كانت معمورة وحسنة الطراز، وهي ترحب بالإسبان(8) أكثر من غيرها من مدن إيطاليا. وزار مُبتهجاً مدينة فلورنسا وقد أعجب برونقها وسعة شوارعها ونظافتها، وعظمة أبنيتها ومياه نهرها العذب. وبعد أن بقي فيها أربعة أيام، ارتحل منها إلى روما، ملكة المدن وسيدة العالم. فزار معابدها وذهل من كنوزها ورفعتها والتي من رؤية (مخلب الأسد)(9) فيها تتأصل المعرفة بسموّها وبأسها. حيث لاحظ على المدينة أبنيتها المتلألئة بالمرمر والتماثيل الكبيرة والمتوسطة وأقواسها المتهدمة وحماماتها المحطمة، ببواباتها المدهشة ومسارحها الكبرى، بنهرها الشهير المقدس الذي يملأ أطرافها بالمياه وما يفيض يغطي قبور الشهداء الراقدين عند ضفافه، وبجسورها التي تبدو وكأن الواحد منها ينظر للآخر، وبالنظر للأسماء فحسب، ستتسم المدينة بالأصالة عن بقية المدن الأخرى: جادة آبيا ولا فلامينيا وخوليا، وغيرها من هذه الشوارع. لكن إعجابه كان مماثلاً ومن دون نقصان لرؤيته أيضاً تقاسيم الجبال في المدينة نفسها: الثيليو والكيرينال والفاتيكان مع جبال أربعة أخرى، أسماؤها تشي برفعة وبهاء الرومان. ولاحظ أيضاً مكانة مدرسة الكاردينالات وما لها من سلطة الحيّز المقدس واتساعها لخليط من البشر ومن شتى المشارب.

كل هذا راقبه ونقشه في ذاكرته. ومنها تمشّى حتى محطة الكنائس الست، وهناك جثا اعترافاً بذنوبه وقبّل قدم قداسته المزينة بميداليات (حمل الرب)(10). ثم قرر المضي إلى نابولي. ولما كان متطيراً من شر الدخول

والخروج براً، فقد اتجه لمدينة نابولي بحراً، وما أن وصلها حتى ازداد اعجاباً على إعجابه السابق، فقد بدَت له -ولمن شاهدها مثله- أفضل مدن أوربا والعالم بأسره.

ومن هناك اتجه إلى صقلية حيث مرّ بباليرو وميسينا، وقد أعجبه من باليرو موقعها وجمالها، ومن ميسينا ميناؤها، ومن الجزيرة قاطبة غزارة إنتاجها، لهذا تُسمّى بمخزن حبوب إيطاليا. ثم عاد بعدها إلى نابولي وروما، ومن هناك اتجه إلى نويسترا سنيورا دي لوريتو(11)، وفي معبدها المقدس لم يرَ جدراناً ولا رسوماً ولا جداريات، وما لمحه بجدارة هو كلّ تلك الشعائر والتعاويذ والسلاسل التي تتقرّب من بركات القديسين، والتي يمكن أن يجدها أي واحد وهي تزين جدران بيته. كما حظي بمشاهدة مقام القديسة التي تلهج الألسن بذكرها والتي حار بفهم مغزاها من هم في السماء، بل وكلّ الملائكة ومن هم على الأرض(12).

ومن هناك صعد في أنكونا متجهاً إلى مدينة البندقية، وهي المدينة التي لو لم يولد فيها كولومبس، لما عرف العالم مدينة مماثلة لها؛ بفضل السماء العليّة وهرناندو كورتيس الذي غزا المكسيك الكبرى، لكي يكون للبندقية الكبرى ما يجعلها فريدة عصرها. لهاتين المدينتين شبهٌ كبير في شوارعها وهي كلها من مياه: مدينة أوروبا، عجبُ العالم القديم، ومدينة أميركا، هلع العالم الجديد. للمدينة غنى لا نهاية له، حكومتها الرشيدة وموقعها المتميز ووفرة خيراتها وضواحيها الهانئة، وهي أخيراً كلّ شيء فيها لهذا فاقت شهرتها كلّ أقطار المعمورة مما جعل منها حقيقة بفضل ماكينة ترسانتها الشهيرة حيث تصنع السفن والقوارب التي لا عدّ لها.

كانت هدايا (الكاليبسو) (13) التي وجدها صاحبنا المتعطش في مدينة البندقية، قد أنسته تقريباً الهدف من تواجده. لكنه بعد أن بقي لمدة شهر فيها، سافر إلى فريرا وبارما وبلاسنتيا ومنها عاد إلى روما مركز التصنيع والعدوة مملكة فرنسا. وهذه المدينة كلّ ما يقال يصح عليها قولاً وفعلاً، جعلت من روعتها مثلاً عظيماً ومن معبدها ووفرة خيراتها الدهشة في كلّ ما يحتاجه البشر من أشياء ضرورية. ومن هناك مضى حتى أستي(14)، ووصلها في الوقت المناسب بيوم واحد قبل أن تمضي القوات إلى الفلاندس.

استقبله صديقه الفارس استقبالا رائعاً، وبرفقته والآخرين مضوا حتى الفلاندس. وصلوا أول الأمر إلى أمبيرس، وهي مدينة لا تقل روعة عما شاهده في إيطاليا. هناك زار غانت وبروكسل، وشاهد أهل البلاد كلها وهم مستعدون لحمل السلاح حتى يمضوا مجهزين في الصيف القادم.

وبعد أن أتمَ كلَ ما رغب في رؤيته، قرّر مع نفسه العودة إلى إسبانيا ومواصلة دراسته في جامعة سلمنكا. وما فكر به عمل على تنفيذه على الرغم من أسف صاحبه الفارس الذي رجاه أثناء توديعه أن يبلغه بأخباره أولاً بأول حال وصوله وما يتبعه. وهو بدوره وعده بذلك، وقد قرر المرور بفرنسا ومنها العودة إلى إسبانيا، دون أن يتمتع برؤية باريس لأنها كانت في حالة استعداد وتسليح للحرب. ختاماً وصل إلى سلمنكا حيث استقبله أصحابه خير استقبال، ولشعوره بالراحة والاستقرار عاود الدراسة حتى أتمها بنيل شهادة خريج في القانون.

حصل أن وصلت في تلك السنة إلى المدينة سيدة متحررة لا تضاهى بقدراتها في الوصل وإيقاع الرجال بشباكها. وقد حطّ في وكرها كلّ طير مرّ بالمدينة ولم يسلم منها أحد. ولما وصل إلى أسماع توماس أن السيدة قد ادعت زيارتها إيطاليا والفلاندس، فحمله الفضول للتعرف عليها. وما بين زيارة وأخرى، وقعت السيدة العفيفة صريعة هواه. لكنه لم يشأ الدخول إلى بيتها إلا بعد أن ألحَ عليه صحبه، رفض بعدها تجديد الزيارة لها. وهي في النهاية كشفت له عن رغبتها به وعرضت عليه أن تمنحه كلَ أملاكها مقابل قبوله. لكنه وهو المنشغل بكتبه فحسب ولا يهتم لأمور الحياة الأخرى، لم يستجب بالمرة لطلب ورغبة السيدة.

شعرت السيدة بجرح في داخلها سببه توماس لعدم استجابته لرغباتها، ولأنها متأكدة من عدم حصولها عليه بالطرق المعتادة، فقد لجأت لوسائل أخرى، وهي برأيها أشد نفعاً وتعجيلاً بتحقيق رغباتها المعلنة. وهكذا أخذت بنصيحة سيدة موريسكية(15) بأن قدمت لتوماس ثمرة سفرجل منقعة بطلاسم سحرية معتقدة أنها بهذا ستُجبره على عشقها والوقوع بمحبتها. لكنها لا تعرف أن كلَ أعشاب العالم وكلماته ولا رقُته بقادرة على اجبار الإرادة الحرة حتى لو أطعمته كلَ أطعمة العشق ومهيجاتها. لكنها قامت

بالمقابل بدس السموم لكل ما يتناوله، كما اثبتت التجارب والمواقف المتنوعة.

ما أن أكل توماس السفرجل في لحظة سوء، حتى بدأ على الفور يؤذي قدميه ويديه كما لو كان مصاباً بالصرع، ودون أن يعود إلى رشده لساعات طويلة، عاد بعدها وكأنه في حالة ذهول، وقال بلسان متلعثم ومضطرب إن السفرجل الذي أكله قد أتى عليه، وأعلن عن اسم من أعطتها له. عندما علمت العدالة بالحالة، ذهبوا للبحث عن سيئة الصيت تلك. لكنها وقد رأت ما أقدمت عليه، كانت قد لملمت أغراضها واختفت ولم يرها بعد ذلك أحد.

ظل توماس راقداً في الفراش لمدة ستة أشهر، وقد جفت أوصاله، وظل كما يُقال جلداً على عظم، وظهر للجميع أن قدراته الذهنية قد تدهورت تماماً. وعلى الرغم من أنهم قاموا معه بالعلاجات الممكنة، إلا أنهم قاموا فقط بشفاء مرض جسده، وليس ما في رأسه، لأنه وإن بدا معافى، إلا أنه كان مجنوناً بأغرب حالات الجنون مما شوهد حتى ذلك الحين.

صار البائس المسكين يتخيّل أنه مصنوع من الزجاج. وبهذا الوهم، فإنه عندما يقترب منه أحدهم، يصدر أصواتاً رهيبة متوسلاً به بالكلمات والإشارات أن لا يقترب منه لأنه قد يعرّضه للكسر. فهو حقيقة وواقعاً ليس مثل بقية البشر، لأنه كله قُدّ من زجاج من رأسه حتى قدميه.

ولكي يقوموا بإخراجه من وهمه الكبير هذا، فإن الكثير منهم، ودون الالتفات لتوسلاته ورفضه، كانوا يقومون باحتضانه والإحاطة به، وهم يصرخون به أن يراقب حالته وهو أنه لم يتكسّر. لكن المسكين في المقابل، يتدحرج في الأرض صارخاً للمرة الألف لتأتي بعدها حالة إغماء تتركه على حاله ممدداً لأربع ساعات كاملة. وعندما يعود إلى وعيه يُجدّد توسلاته ودعواته أن لا يقتربوا منه أبداً. كان يطلب منهم أن يبقوا بعيداً عنه وان يسألوه ما يشاؤون، لأنه في بحر معرفته قادر على الإجابة بما يرغبون ذلك لكونه رجُلاً من زجاج وليس من لحم ودم. فالزجاج كما يرى من مادة شفافة رقيقة، وتعمل الروح عبرها بدقة وقدرة عاليتين أفضل من الجسد الترابي الثقيل.

وشاء الكثيرون أن يجربوا صدق ما يقوله، وهكذا بدأوا يسألونه في قضايا كبيرة لاختبار عقله، وهو ما شكل إعجاباً كبيراً به من رجال الأدب في الجامعة ومن أساتذة

الطب والفلسفة، وهم يرون فيه ذلك الجنون الغريب إذ يفكر في كونه مصنوعاً من زجاج، بينما كان في الحقيقة يقدم معرفة عالية وقدرة فائقة إزاء أي سؤال يُطرح عليه.

طلب توماس منهم أن يعطوه جراباً واسعاً ليحتوي كأس جسده القابل للكسر، لأنه يعتقد أن لباساً واسعاً لن يحطمه. وهكذا منحوه ثوباً واسعاً وقميصاً عريضاً، فلبسه بعناية تامة وشدّ عليه خيط زنار من القطن. ورفض رفضاً قاطعاً أن يرتدي حذاء في قدميه. أما نظام ما اقترحه لكي يطعموه دون أن يقتربوا منه، فهو أن يعلقوا إناء التبول في رأس عصا يملؤونه بما يجود به الفصل من فاكهة. أما اللحم والسمك فلم يكن من آكليها، وعندما يشعر بالعطش يشرب من نبع أو من نهر، هكذا وهو يغرف منه بيديه. وعندما يمشي في الشوارع كان يمضيها في الوسط وهو يراقب السقوف خوفاً من أن تنهار أو أن يسقط عليه حجر منها ويكسره. في الصيف ينام في الحقل أو تحت السماء المكشوفة، أما الشتاء فيقضيه في أحد الخانات متنعماً ومتغطياً كلياً حتى رقبته في كومة التبن، وهو يشرح للناس أنها الطريقة المثلى للرجال الذين هم من زجاج على شاكلته. وعندما ترعد السماء، كان يرتعش متهيّجا ويهرب إلى الحقول ولا يدخل المدينة حتى تكون قد مرّت العاصفة نهائياً.

حجَر عليه أصحابه لوقت طويل، ولكنهم رأوا أن جنونه يمضي إلى الأمام، لهذا قرروا أن يصغوا لمطالبه، وهو أن يتركوه حراً طليقاً، وهذا ما فعلوه، فخرج من المدينة مشيّعاً بالعجب والتأسف لكل من عرفه.

كان الصبية يحيطون به، لكنه كان يطردهم بعصا يحملها معه، وكان يجبرهم على أن يحدثوه عن بعد حتى لا يتكسر، ذلك أنه رجل من زجاج رقيق وقابل للتهشم. كان الصبية، وهم من أشقى خلق العالم، حتى لسماعهم توسّلاته ورجائه، يشيعونه صلياً ورمياً بالحجارة ليروا فيما لو أنه يتكسر حسب قوله. لكنه كان يصرخ عالياً ويطوح بذراعيه أملاً في أن ينجده العامة ويعاقبوا الصبية على أفعالهم.

ذات يوم وقد أتعبوه جرياً خلفه، توجه لهم قائلاً:

«ماذا دهاكم أيها الصبية، الملتصقون بي كالذباب، المتسخون كالبقّ، القذرون كالبراغيث؟ أتظنونني حقاً كجبل تستاشو(16) في روما حتى ترموني بكل ما طالته

أيديكم من الحجارة وكسر القرميد؟».
ولسماعهم خلافه معهم وإجابته على كلّ ما يطرحونه عليه، كانوا لا يكلّون عن ملاحقته، لكنهم في النهاية فضّلوا الإنصات له بلاً عن رشقه بالحجارة.
وكان أن مرّ ذات يوم بسوق الثياب في سلمنكا فقالت له إحدى البائعات:
«يؤلمني حالك أيها السيد خرّيج الجامعة وما يحصل لك من مصائب، لكن ماذا أفعل أنا كي أبكيك والدمع لا ينزل من عيني؟».
فالتفت لها وقال بصوت مهيب:
«يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلِ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلاَدِكُنَّ» (17).
وفهم زوج البائعة الشر المتطاير من قوله، فرده قائلاً:
«إيه أيها الشقيق الجامعي الزجاجيّ»، وهذا ما كان يقوله عن نفسه، «أرى في كلامك لؤماً أكثر منه جنوناً».
«لا شيء له أهمية ما لم يخالطه شيء من الجنون!»، أجابه هو.
ومرّ يوماً من الأيام على مبغى، ووجد في بابه بعضاً من المريدين، فقال فيهم إنهم من أعوان جيش الشيطان ويقيمون في منزلةٍ من منازل الجحيم.
وسأله أحدهم النصيحة في صديق قد هجرته زوجته هرباً مع آخر، فأجابه قائلاً:
«قل له أن يشكر الرب لأنه أتاح له فرصة حملها إلى بيت عدوّه».
«وبعد ذلك، ألا يذهب للبحث عنها؟»، قال الآخر.
«ولا يفكر بها مطلقاً!»، أجابه الرجل الزجاجيّ، «فذلك سيكون شاهداً أبدياً وحقيقياً على كونه تيساً!».
«وهو كذلك»، قال الرجل نفسه، «وماذا أفعل أنا للصلح مع زوجتي؟».
فأجابه:
«امنحها كلّ ما يقضي حوائجها، واتركها تتحكم بكل ما في البيت، ثم لا تتذمر بعد حين إذا طالتك أوامرها».
عندها سأله أحد الفتية:
«سيدي الرجل الزجاجي، كيف يمكنني التخلص من سلطة أبي وهو يكيلني ضرباً بالسوط في كلّ مرة يراني فيها؟».
فأجابه:

«اعلم أيها الصبيّ أن سياط الأب نعمة، وسياط الجلاد نقمة».

وكان ذات يوم عند بوابة كنيسة، فرأى أحد المزارعين الذين تُطلق عليهم صفة المسيحيين القدامى(18) يدخلها، وبالخلف منه يتبعه رجل ليس منهم، فصاح توماس بالمزارع بصوت مرتفع:

«انتظر أيها الأحد، حتى يدخل السبت!»(19).

وعن المعلمين كان يقول إنهم محظوظون لأنهم يتعاملون مع ملائكة، وسيكونون محظوظين حقاً لو لم تكن للملائكة أنوفٌ تسيل مخاطاً قذراً.

وسأله أحدهم رأيه في القوّادات. فأجابه أنه لا يخشى البعيدات منهن، بل تينك اللائي يقطنّ في الجوار.

وعن حالات جنونه القديمة تضاف لها الجديدة من أقواله وإجاباته فقد شاع خبرها في كلّ مقاطعة قشتالة، فوصل صيته إلى أمير أو سيد كان يعيش في البلاط(20)، ففكر باستقدامه. وعهد الأمر لفارس صديق له كان يمرّ بسلمنكا بأن يرسله له حالاً. فما كان من الفارس، وقد التقاه مرة، إلا أن يسأله:

«هل تعلم أيها السيد الزجاجيّ أن رجلاً من علية القوم يعيش في عاصمة البلاط يرغب برؤيتك وقد بعث بي لأحملك إليه».

«ليعتذر سيادتكم لي من هذا السيد، فلست على وفاق مع القصور، إذ أصاب بالخجل ولا أعرف المداهنة».

مع ذلك فقد قام الفارس بحمله إلى البلاط، ولكي يُقنعه فقد استخدم هذه الحيلة: كان أن وضعوه في سلة من السلال الكبيرة المحشّاة بأكوام قش، ووازنوها بسلة مليئة بالحجارة، كما وضعوا إلى جواره عدداً من الأواني الزجاجيّة لإيهامه بسلامة النقل وأنهم يعاملونه بالمثل كقطعة زجاج. عندما وصلوا بلد الوليد ليلاً، حملوه مباشرة إلى دار السيد الذي أرسل بطلبه، وقد استقبله بحفاوة مُرحّباً:

«أهلاً بك سيادة الرجل الزجاجيّ. كيف كان حالكم في الرحلة؟ وكيف هي صحتك؟».

فأجابه قائلاً:

«لا وجود لطريق سيّئ ما دام لا يمضي بك إلى المشنقة. وعن الصحة فهي عادية لأن نبضي موجود في عقلي».

وفي يوم آخر وقد شاهد عدداً هائلا من الصقور والبُزاة

وطيور القنص الأخرى، قال إن القنص بالجوارح يليق بالأمراء والسادة الكبار، لكنه حذّرهم أن حصيلة كلّ واحد منهم يجب أن لا تقل عن ألفي طائر. أما صيد الأرانب البرية فهي مُبهجة خاصة لو تم الصيد بكلاب سلوقية مستعارة.

أعجب الفارس بحالات جنونه ثم تركه يجوب المدينة بعد أن كلّف أحد رجاله بحمايته من أذى الصبيان. وفي ظرف ستة أيام أصبح معروفاً في عاصمة البلاط كلها. وما كان منه في كلّ خطوة وفي كلّ شارع وفي كلّ زاوية إلا وقد أجاب على تساؤل ما. من بين تلك الأسئلة ما طرحه طالب علم اعتقد أنه شاعر أيضاً ذلك أنه يمتلك الموهبة.

وعليه فقد أجابه:

«حتى الآن لم أصبح أحمق تماماً ولا محظوظاً بإفراط».

«لا أفهم هذا الذي تقوله عن الحماقة والحظ»، سأله الطالب.

«أعني أنني لست أحمق لأكون شاعراً سيئاً، ولا محظوظاً لأكون شاعراً جيداً».

وسأله طالب آخر عن تقديره للشعراء. فقال له إنه يقدر جداً الفنون، أما الشعراء فلا يقدرهم. وعندما اعترض عليه، قال له مُجيباً: إن هناك عدداً لا يُحصى من الشعراء ومنهم القليل من يتصف بالجودة بحيث لا يشكلون رقماً هائلاً. لهذا فعدم وجود الشعراء شيء لا يصيبه بالخيبة، وهو على هذا يقدر جداً فنون الشعر لأنها تضم كلّ الفنون الأخرى، وكلها نافعة وتساهم بتلميع وصقل وتزيين الأعمال الرائعة التي تملأ العالم بالرونق واللذة والإبداع.

وأضاف:

«أنا أدرك للغاية ما يجب تقديره في شاعر جيد، لأنني أتذكر أبيات أوفيد الشعرية تلك القائلة:

عندما كان الشعراء ملوكاً في البلاطات
ويستحقون على قصائدهم الهبات والعطايا
حكماء ودعاة في آن واحد
وأغنياء بلا حدّ.

ولن أنسى التقييم العالي للشعراء، بحيث أسماهم أفلاطون بترجمان الآلهة، وفيهم قال أوفيدو:

هي لنا ما دامت مشتعلة».

وأضاف أيضاً:

«أولئك الذين يدعون بالقدسيين، إنما هم كذلك بعناية

الآلهة. وهذا ما يقال عن الشعراء الجيدين، أما عن هؤلاء المتشاعرين الرديئين؟ فماذا يمكن القول سوى إنهم حماقة وعنجهية هذا العالم».

ثم قال مضيفاً:

«حين ترى واحداً من هؤلاء الشعراء الأدعياء، ستعرفه من اللحظة الأولى، فهو ما أن يريد إلقاء قصيدة سونيت على من يحيط به، حتى يبدأ قوله لهم: (وهذه القصيدة السونيتة التي تسمعونها حضراتكم إنما كتبتها ليلاً دون مناسبة، وهي وإن كانت لا تساوي شيئاً فلا بدّ أن بها من الجمال بعض الشيء). وبهذا يلوي فمه ويقطّب قوسي حاجبيه ويفتش في جيبه بين آلاف الأوراق القذرة الممزقة حيث يستطيع العثور على ألف سونيتة أخرى، ويستخرج ما يريد أن يلقيه عليهم ويشرع بإلقاء القصيدة بصوت منغّم بهي. وإذا كان مستمعوه -لسذاجة أو جهل- لم يطربوا على إنشاده، فسيقول لهم: (أما أن حضراتكم لم تفهموا القصيدة أو أنني لم أنجح بإلقائها. لهذا سأقوم بإلقائها مرة أخرى وما عليكم سوى التركيز معي، لأن الحق كلّ الحق أن هذه السونيتة تستحقّ التبجيل). ويعاود القراءة بإشارات وتوقفات جديدة. ماذا يسعني أن أقول عن أولئك الذين يتبجحون الواحد على الآخر؟ وماذا أقول عن نباح الجراء والمستجدّين بحق كلاب الحراسة العتيدة الشرسة؟ وماذا أقول عن أولئك المفترين بحق الأصلاء والجهابذة المُجيدين موهبة بالشعر ونوره الحقيقي، وهم ما أن يستريحوا ويتفرّغوا للأمر حتى يزيحوا عنهم أقنعتهم ويدلوا بدلاء شرورهم وتفاهاتهم وأحكامهم عن كلّ شيء لا يفهمونه ولا يعلمون عنه أي شيء، وهم يتجاوزون التوقير والتقدير العاليين لينزلوا إلى حضيض حماقتهم وغبائهم المستتر في طيات أرديتهم والجهل الراكد على مقاعد جلوسهم».

ومرة أخرى سألوه عن السبب فيما يراه بأن أغلب الشعراء يعيشون في فقر مُدقع؟

فأجابهم لأنهم يرغبون بذلك، ففي وسعهم أن يكونوا أغنياء فيما لو استغلّوا الفرص التي تصلهم، وهي كثيرة، عن طريق سيدات أفكارهم الغنيات غنى فاحشاً بفضل جدائلهن الذهبية والجباه الفضية المصقولة والعيون الزمرّدية الخضر والأسنان العاجية والشفاه المرجانية والأعناق التي من زجاج شفاف، وما يطفر من عيونهن

ليس دمعاً بل لآلئ مائية. بل وأكثر من ذلك فالنباتات التي يدْسنها بأقدامهن مهما كانت ميتة وقاسية تُربتها؛ تنتج توّاً من الياسمين والورود، وفي أنفاسها عبق عنبر أصيل وروائح مسك وغالية، وهذه كلها إشارات ونماذج عن سعة ثرائهن. هذه الأشياء وغيرها يقولها عن الشعراء السيئين، أما عن الفطاحل منهم فيمتدحهم بدعاء يصل حتى قرن القمر.

ولمح يوماً ما في جادة سان فرانتيسكو لوحات مرسومة بيد فنان فاشل، فقال إن الرسامين الجيدين يحاكون الطبيعة، بينما السيئون منهم يتقيؤونها.

واقترب ذات يوم من دكان كتبيّ بحذر كبير حتى لا يزعجه، وقال له:

«هذه المهنة تعجبني جداً لولا خلل فيها».

وعندما سأله الكتبيّ عنه، أجاب:

«التزلف الذي تقومون به عندما تشترون حقوق كتاب، والسخرية من مؤلفه فيما لو طبعه على حسابه. وبعد ذلك بدلاً من الألف وخمسمائة نسخة المتفق عليها، تطبعون ثلاثة آلاف نسخة، إذ بينما يعتقد المؤلف أن نسخه هي التي تباع، يكتشف أن المباعة هي نسخُ الغير.

وتصادف في اليوم نفسه أن رأى في الساحة ستة من المحكومين جلداً بالسياط يقودهم المنادي وهو يصيح: «الأول نجلده لأنه لص»، فقام توماس بالصراخ على الذين أمامه قائلاً:

«ابتعدوا يا أخوة حتى لا يصل الدور لواحد منكم!».

وعندما نطق المنادي بقوله: «والذي في الخلف...».

فأجاب عنه:

«هذا ولا ريب كفيل الصبيان».

عندها قال له أحد الفتيان:

«أيها الشقيق الزجاجي، غداً سيقومون بجلد قوّادة».

فرد عليه:

«لو قلت لي إنهم سيقومون بجلد قوّاد، لفهمت أنهم يقومون بالقوادة بلا استثناء».

إثناء ذلك لمح أولئك الذين يحملون كراسيهم معهم أينما مضوا، فسألوه:

«وعنا ماذا تقول أيها الجامعي؟».

«كلا»، أجاب الزجاجي، «فكل واحد منكم يعرف عن ذنوبه التي جاء ليعترف بها أكثر منا، ولكن مع فارق هو أن

قس الاعتراف يخفي السر ولا يعلنه أبداً، وأنتم تقومون بإذاعته علناً في الحانات».

وسمع ذلك صبيّ سائس بغّال، وكان يحيط به شتى أصناف البشر، فكان أن سأله:

«وماذا عنا أيها السيد الحاذق، هل هناك الكثير أم القليل؟ فنحن أناس مسالمون ووجودنا ضروري للجمهورية».

«شرف السيد يكشف عنه شرف خادمه. وتبعاً لهذا التصور يمكنني أن اجيبك: أنظر منْ تخدم سترى مقدار ما ينالك من شرف. أنتم يا من تعملون بهذه المهنة، من أحطّ الخلق على وجه البسيطة. ذات مرة عندما لم أكن زجاجياً بعدُ، مضيت شوطاً على ظهر بغلة مؤجرة، فأحصيت فيها الآلاف المؤلفة من العيوب. جميعكم تقريباً من أعداء الجنس البشري، وكل سائسي البغال من المحتالين واللصوص والمجرمين. إذا كان أسيادكم (وهذا ما يطلقون من تسمية على من يُحملون على البغال) ممّن يسهل غشهم، فإنكم تفعلون بهم أكثر مما فعل الناس بالمطرودين من المدينة في السنوات الماضية(21). وإذا كانوا من الأجانب فتسرقونهم، وإذا كانوا من الطلبة أسأتم معاملتهم، وإذا كانوا رجال دين تكفّرونهم، وإذا كانوا من الجنود فتجعلونهم يرتعدون.

البحارة والحوذيّون والبغالون يعيشون حياة غريبة: الحوذي يمضي كلّ حياته في مكان لا تزيد أمتاره عن المتر ونصف، وهي تلك المسافة ما بين مقود البغال حتى طرف العربة، ويقضي كلّ وقته ما بين الدندنة وبين السباب والشتائم صوب الآخرين، والتي لا تنقطع عن شفتيه. وإذا ما غاصت عجلة في الوحل فشتائمه قادرة على إخراج العربة أفضل من خدمة ثلاثة بغال. أما البحارة فهم من الظرفاء المتبجحين، وهم لا يعرفون لغة غير لغة السفن، نشطاء عند سكون البحر وكسالى عندما تهيج العواصف. أوامرهم أثناء العواصف كثيرة، وطاعتهم معدومة. ربّهم المعبود سفينتهم وهوايتهم مراقبة المسافرين الذين يصابون بدوار البحر. أما البغّالون فهم في طلاق مع الشراشف لا سيما وقد تزوجوا بالبرذعات، مصابون بالعجلة والتسرع فخوفهم من فوات اليوم يصيب أرواحهم بالضياع. أما موسيقاهم فهي ضربات الهاون، والجوع هو الصلصة التي يقتاتون عليها. صلواتهم الصباحية هي نهوضهم لتقديم العلف، أما القدّاس فهم معرضون عنه».

عندما قال كلّ هذا، كان في مواجهة صيدلية، فكان أن توجّه لصاحبها وهو يقول له:

«سعادتك تملك مهنة حسنة، لو أنك لا تناصب القناديل العداء».

«بأي شكل تعتبرني عدواً للقناديل؟»، سأله الصيدلاني.

فأجابه الزجاجي قائلاً:

«أقول هذا لسبب، وهو أنكم ما أن تفتقدوا لزيت العقار، حتى تلتجئوا لما بين أيديكم من زيوت القناديل، وهذا بحدّ ذاته سببٌ يكفي لسحب الثقة من أمهر أطباء العالم».

وعندما سُئل عن السبب، قال إنه عرف صيدلانياً بدل أن يعترف بنقص صيدليته مما أوصى به الطبيب، كان يعالجه بوضع مواد أخرى بدلاً منها غير جديرة لا بالمفعول ولا بالجودة، لهذا فالخطأ في التركيبة يؤدي لنتيجة مغايرة تسبب الأذى للمريض.

عند ذلك سأله أحدهم عن رأيه بالأطباء، فأجابه:

«الطبيب أهلٌ للتشريف للحاجة القصوى له، ولأن الربّ العليّ القدير قد عنى بتعليمه. كما أن الربّ في غلاه هو مصدر كلّ شفاء من داء. بينما الملوك يتلقون العطايا والهبات، فالطبيب بعلمه مرتفع الرأس ولا يكلّ عن مديحه والثناء على عمله عليةُ القوم ووجهائهم. لقد خلق الربّ أدوية الأرض وأشار للطبيب بما هو صالح منها وما يجب الحفاظ عليه(22)، وهذا ما ورد في السفر المقدس عن الطب والأطباء النافعين. أما عن الأطباء السيئين فهو عكس ما قلته عن الطيبين تماماً، لأنه لا شيء أكثر شراً وعداء منهم على مصالح الجمهورية. فالقاضي يستطيع تأخير البتّ بقضية، أو ليّ عنق الحقيقة، والمحامي ينظر بتحقيق مصالحه الشخصية أكثر من الفصل في القضايا الجائرة. أما التاجر فناهب لقوت الناس. خلاصة قولي إن كلّ الأفراد الذين نتعامل معهم لحاجة ما، من الممكن أن يسببوا لنا الأذى. من الممكن أن يقضوا على حياتنا دون رادع أو خوف من العقاب، أبداً. فقط الأطباء يستطيعون قتلنا ويقتلوننا دون خشية من قصاص يطالهم. ذلك أنهم لا يحتاجون لاستلال سيوفهم، بل من خلال وصفة الدواء لا غير. ولا مجال لاكتشاف جرائمهم لأنهم يوارون عليها التراب حالاً.

أتذكر، عندما كنت لا أزال من لحم ودم ولستُ زجاجياً كما أنا عليه الآن، حادثة طبيب من الدرجة الثانية أن طرد

مريضه الأول لأنه كان بحاجة لعلاج مريض آخر. فما كان من الأول بعد مرور أربعة أيام أن مرّ على صيدلية حضرت دواء الثاني الذي وصفه له الطبيب نفسه، وسأل الصيدلاني عن محتوى الوصفة وإن كان قد حضرها للمريض الثاني أم أنه احتاج المرور على طبيب آخر؟ فأجابه الصيدلاني أنه يحتفظ بورقة دواء ذلك المريض وقد حضّرها ليتناولها اليوم التالي. وعندما طلب منه أن يطلع عليها، وجدها شبيهة تماماً بالتي وصفها له الطبيب نفسه. فقال: كلّ ما جاء في هذه الوصفة يقنعني، ما عدا تلك التي تشير إلى ضرورة تناول الدواء على الريق، وهذا لا يتفق ورطوبة الصبح القارسة».

بهذه التعليقات وأخرى غيرها قد قال رأيه في كلّ المهن، وقد كانوا يعدون خلفه دون أن يزعجوه أو يؤذوه، كما لم يتركوه يستريح. لكنه مع ذلك لم يستطع التخلص من تطفل الصبيان دون حماية حارسه.

ثم سأله أحدهم كيف للواحد منا أن لا يقع في جريرة حسد الآخرين.

فأجابه قائلاً:

«حاول أن تنام، وكل الوقت الذي تمضيه في النوم ستكون مساوياً للآخر فيه».

وذات يوم مرّ من أمامه قاضي نزاعات يمضي للنظر في حادث جريمةٍ يرافقه شرطيان وجمع غفير من الناس. وعندما سألهم عنه وعرف بذلك، قال فيه:

«أراهن على أن القاضي يضمر الشر في صدره، والعقاب الصاعق في راحته والمسدس في حزامه ليحطم كلّ من يقف في طريق قضيته. أنا أتذكر أحد الأصدقاء كان في تحقيق إجرامي وأصدر حكمه فيه بقسوة مبالغ فيها بمقدار مثاقيل كثيرة لا تتناسب وذنب المجرمين. وعندما سألته عما دفعه لكل تلك القسوة في الحكم والظلم الظاهر علناً فيها. أجابني إنه يفكر بالاستئناف الذي سيقدمه المتهمون وليترك مجالاً كبيراً لسادة المجلس القضائي للنظر بمظلوميتهم والعطف عليهم حتى يتم تنزيل العقوبة إلى حدها المناسب. وما أن اتم شرح حال قضيته، حتى أجبته: كان من الأفضل لو أوقعت العقوبة المستحقة عليهم منذ البداية بدلاً من اللجوء للاستئناف وبهذا تكون قاضياً عادلاً وصائباً».

وفي زوبعة حشد الناس الذي يتبعه، كان يعلم بوجود

أحد طلاب العلم المعروفين له، وهو ذلك الذي نودي بالسيد الجامعي، وتوماس الزجاجيّ كان يعرف أن من نودي بذلك لم ينل أية شهادة جامعية ولا حتى ثانوية، فقال له:

«أهربْ يا صاحبي! حتى لا يكتشف القساوسة المساهمون بتخليص الأسرى فقدانك للشهادة، فيصادرونك كما يصادرون العقارات التي ليس لها صاحب».

فرد عليه الصاحب قائلاً:

«تكلم معي باحترام أيها السيد الزجاجيّ، لأنك تعلم أنني رجل آداب ومعارف عالية معمّقة».

فأجابه الزجاجيّ:

«أنا أعرف حق المعرفة أنك عملاق فيها: لأنها تمرّ من فوقك بعلوها، ولا تستطيع الوصول ولو لشذرة في عمقها».

وكان ذات يوم في جوار دكان خياط، وقد لمحه جالساً لا ينوي على شيء، فقال له:

«بلا شك أيها السيد الماهر أنك في طريق الخلاص».

«وكيف رأيت ذلك؟»، سأله الخياط.

«كيف رأيتُه؟»، أجابه الزجاجيّ، «بما إنك لا تجد ما تعمله فلن تُتاح لك الفرصة بالكذب».

وأضاف:

«يا لتعاسة الخياط الذي لا يكذب لا سيما في موسم الاحتفالات. شيء مدهش في كلّ بني جنسكم في هذه المهنة أن تجد ثوباً يخرج سليماً من بين يديه، ما لم يكن مرصعاً بزقع ذنوبه».

أما عن الإسكافيين فقال إنهم حسب ادعائهم لا يصنعون حذاء سيئاً إطلاقاً: فلو حدث وكان ضيقاً لقالوا لصاحبه إنها الموضة، أو إنه سيفتح قليلاً مع المشي، حتى يصبح في النهاية لا فرق بينه وبين الصنادل العريضة المهلهلة. وإذا كان ما صنعوه عريضاً فهم قد أوسعوه حتى لا تُصاب القدمان بأذى مرض النقطة.

وكان هناك شاب ضليع يشتغل كاتباً في دائرة المحافظة كان يسأله الكثير ويحمل له كلّ الأخبار المستجدّة عمّا يجري في المدينة، وكان يعلق عليها ويجيبه عنها كلها. وقد أخبره هذا الشاب ذات مرة:

«يا زجاجي، هذه الليلة مات في السجن (بنكي)(23) محكوم عليه بالشنق».

فأجابه حالاً:

«لقد عمل معروفاً بموته قبل أن (يجلس) عليه الجلاد».

وعلى رصيف في جادة سان فرانتيسكو، مرّت به جماعة من تجار مدينة جنوة، وكان أن ناداه واحد منهم يسأله:

«ليأتِ سيادة الزجاجي ها هنا وليحك لنا حكاية».

فأجابه:

«لا أرغب بذلك حتى لا تحملوني إلى جنوة».

ورأى ذات مرة صاحبة دكان تمشي في الشارع وأمامها ابنة لها دميمة، لكنها مزينة بالأحجار والحلي واللآلئ، فقال لأمها:

«خيراً فعلتِ بتغطيتها بالأحجار والحلي، بهذه الهيئة تستطيع المشي في الشارع دون أن تثير الانتباه».

وعن صانعي الحلوى قال إنهم يتلاعبون بنحافة الحلويات منذ زمن دون أن يردعهم رادع، ولأنهم يبيعون ما تساوي فلسين بأربعة، والتي بثمانية بنصف ريال، وهم بهذا لا يلتفتون إلا لمنفعتهم وحسب.

أما عن المهرّجين فقد قال آلاف الأشياء: إنهم قوم شحاذون يتعاملون مع الأشياء المقدسة بجلافة لأن اللوحات والرسوم التي يرفعونها تثير الضحك والاستهزاء، وهم يعبثون بصور العهد القديم والعهد الجديد، ثم أنهم يجلسون فوقها للأكل والشرب في الحانات والمواخير. وبالمحصلة يقول إنه سيكون سعيداً لو تمّ الحجْر الأبدي على عروضهم، أو أن يتم نفيهم خارج المملكة.

ومر من جواره ذات مرة أحد الممثلين الهزليين وهو بلباس أمير، وما أن رآه حتى قال له:

«أذكر أنني رأيت هذا وهو خارج المسرح ملطخ الوجه بالطحين ويرتدي فروة بالمقلوب، ومع كلّ هذا، وفي كلّ خطوة خارج خشبة المسرح كان يقسم أنه ابن ذوات».

«لا بد أنه كذلك فعلاً»، قال أحدهم، «فالعديد من الممثلين الهزليين من عوائل طيبة وأبناء ذوات».

«هذا صحيح»، ردّ الزجاجي، «لكن جلّ ما يحتاجه العرض ليس أشخاصاً من عوائل ذوات المدينة، بل يحتاج رجالاً معتبرين، موهوبين وطليقي الألسن. وأيضاً أستطيع القول إنهم يكسبون خبزتهم بعرق جبينهم عن هذا العمل المجهد الذي يتطلب منهم ذاكرة قوية وتفرغاً تاماً كالغجر الرحل من مكان إلى آخر ومن فندق إلى ساحة، وهم يحاولون أن يسعدوا الآخرين، فسعادتهم غير مرهونة بهم.

وعليه فهم لا يخدعون أحداً، إذ يعرضون بضاعتهم علناً

في الساحة العامة وأمام جموع البشر وحكمهم. أما عمل المنتجين فهذا شيء خارق، بالعناية الكبيرة المهولة، عليهم أن يكسبوا الكثير مع نهاية العام حتى لا يعلنوا افلاسهم ويشهَر بهم بين الدائنون وتقام عليهم الدعاوى. فوق هذا، فهم نافعون للجمهورية، شأن المتنزهات والغابات والمناظر الساحرة وكل وسائل اللهو التي يؤدونها بنزاهة».

وحدثهم عن رأي صديق له يخدم عند إحدى ممثلات الهزل، وكأنها خدمة أكثر من سيدة واحدة: فمرة هي ملكة ومرة حورية أو آلهة أو خادمة، وأحياناً أخرى يقع عليها أن تؤدي شخصية رجل حاجب أو خادم، ومن هذه وتلك كلها تؤديها ممثلة الهزل.

وسأله أحدهم عن ذلك الأكثر شهرة في العالم، فقال هو (لا أحد)، إذ أنه لا أحد بلا أب ولا أحد لا تعرف عنه جريمة ما. لا أحد مقتنع بحظوظه ولا أحد عرَج إلى السماء(24).

وعن مدربي المبارزة قال ذات مرة إنهم أساتذة فنّ وعلم لا يمتّ بصلة لواقعنا، مع ذلك فهم غير أبرياء من الغرور والزهو إذ يظنون أن بإمكانهم تقييد حركة الخصم غير النافعة إلى حركات رياضية واجبة. أما أولئك الذين يصبغون لحاهم فقد كان يناصبهم العداء، وكان أن تخاصم أمامه ذات يوم رجلان، الأول منهما برتغالي وقد هدّد الآخر -وكان إسبانياً- ممسكاً بلحيته المصبوغة:

«بلحيتي هذه التي تغطي وجهي كله...!».

فما كان من الزجاجي إلا وتدخل بالرّد عليه:

«إيه يا رجل، لا تقُل شيئاً، صبغة لحيتك تكفينا!».

ورأى آخر لحيته كثّة ومتعددة الألوان بسبب أصباغها السيئة، فما كان منه إلا وشبهها بالمزبلة. وآخر كانت لحيته نصفها سواد ونصفها الآخر بياض بسبب تسرعه بالصبغ، فكان أن نصحه بعدم التخاصم مع أي أحد حتى لا يوصف بالكذب والرياء كحال لحيته.

وذات مرة روى ما جرى لفتاة مهذبة طيِّعة وافقت على الزواج من كهلٍ أشيب الرأس واللحية نزولاً عند رغبة أبويها، وفي ليلة قبل يوم زواجه، لم يمضِ العريس إلى نهر الأردن كما توصي العجائز(25) بل لجأ لمسحوق فضي مكثّف وصبغ به لحيته كلها، فحوّلها من لون الثلج إلى لون صدف السمك. وعندما أزفت ساعة القِران، عرفت الشابة هيئة العريس من بين الأصباغ الطافية. فما كان منها إلا أن شدّدت على أبويها أنها تريد ذلك الذي قدماه لها

ولا رغبة لها بآخر. فقالا لها إن الذي أمامها هو نفسه الذي قدماه لها ووافقت على الاقتران به. لكن الفتاة أصرت على رأيها وجاءت بالشهود الذين اثبتوا أن عريسها ذاك كان رجلاً وقوراً وأشيب الشعر. ولأن الذي أمامها لا يوافق المواصفات، لذا اعتبرت ما قدّموه لها بمثابة خديعة. وكان ما كان إذ هرب ذو اللحية المصبوغة وتخلصت من ذلك الاقتران.

ولم يكن كرهه للسيدات المتصنّعات بأقل من ذوي اللحى المصبوغة، إذ كان يقول أشياء مذهلة عن هيئاتهن وعن أوشحتهن المثقّبة وعن تكلفهن وتملقهن وتذبذبهن وعن بؤسهن البغيض. كما كان يُستثار لسماعهن يتحدثن بدناءة عن أمعائهن المرهفة ودوخة رؤوسهن وغضاضة إحساسهن، وخلاصة القول أن لا فائدة ولا منفعة ترتجى منهن.

ومرّة سأله واحد من المتواجدين:

«ما هذا يا سيادة الخريج الجامعي، لقد ذكرت مساوئ كلّ المهن ولم تتعرض للكتّاب العدول بشيء، ألا يوجد عندك ما تقوله بشأنهم؟».

«رغم أنني من زجاج، لكنني لست بتلك الهشاشة التي تجعلني أنجرف مع الغوغاء من العامة المخدوعين أغلب الأحيان. يبدو لي أن كلّ شيء يمرّ عبر القواعد اللغوية وعبر الدندنات واللللا للا للا، التي ينشدها الكتبة: ولأنه لا يمكن العبور حتى فنون أخرى ما لم يكن عبر القواعد اللغوية، فالموسيقيّ مثلاً يبدأ بالدندنة أول الأمر، بينما هواة الاغتياب والنميمة يبدؤون بالتشكيك والقول السيئ عن الكتبة والحرس ورجال القضاء الآخرين. علماً أن مهنة كاتب العدل لو لم توجد في حياتنا لما قامت للعالم قائمة ولا كان للحقيقة من سند، لهذا ذكرهم الربّ في كتابه المقدس: فَوزُ الرَّجُلِ فِي يَدِ الرَّبِّ، وَعَلَى وَجهِ الكَاتِبِ يَجعَلُ مَجدَهُ(26). إن الكاتب العدل شخصية عمومية، ولا يمكن أن تنصلح مهنة القضاء بشكل مريح دون خدماته. يلزم على الكتبة أن يكونوا أحراراً، لا عبيداً لأحد، وأبناءً شرعيين، لا أولاد زنا ومحارم أو ممّن يُشك بأنسابهم. يُقسمون بالوفاء لمهنتهم ولا يستغلونها لمصالحهم، لا لمنفعة صديق ولا لظلم عدو، رادعهم ورقيبهم هو ضميرهم المسيحيّ الحي. وإذا كانت المهنة تتطلب مواصفات خاصة بهم، فلماذا بحقّ الربّ تلوك ألسنتكم بذكرهم وأنتم

تضعون عشرين ألفا منهم في إسبانيا وحدها في جراب إبليس اللعين نفسه وكأنه المتحكم بمصائرهم حقاً؟ لا أريد تصديق ذلك، ولا أريد لأحد أن يصدق بها. ثم أنني في الختام أقول إنهم رجال مفيدون للجمهوريات المشيدة بدقة، صحيح أنهم يقبضون مبالغ كبيرة لقاء عملهم، لكنهم أيضاً عرضة للانتقاد والاتهامات».

أما عن رجال الشرطة فذكر أنَ لهم أعداء كثيرين وذلك لطبيعة عملهم، فهم يُلقون القبض على المجرمين ويضعون أيديهم على أموالك المنقولة وغير المنقولة، وهم من يحدّدون لك مقرّ إقامتك ويأكلون معك في نفس مقرّك. لكن أن تصفهم بالجهل أو الإهمال هو كوصفك للطبيب الذي يعالج مريضه، فهو سواء شفي أم لم يشفَ، لا يتنازل عن أجرته، لهذا فالحرس والشرطة والمتعقبون يقبضون أتعابهم سواء خرجوا في مهمة أم لا.

حينذاك سأله أحدهم عن أفضل الأراضي برأيه. فأجاب هي الأرض المبكّرة الشكورة.

فرد عليه الآخر:

«لم أعنِ ذلك في سؤالي، بل أردت معرفة المكان المفضَل لك، أهو مدريد أم بلد الوليد؟».

فأجابه:

«أفضلُ ما في مدريد طرفاها، وما في بلد الوليد وسطها؟».

«ما زلت لا أفهم»، ردَ عليه الآخر.

«أفضَل من مدريد تربتها وسماءها، ومن بلد الوليد ما في جوفها».

وسمع توماس الزجاجيَ ما قاله رجل لآخر بأنه ما أن دخل بلد الوليد حتى رقدت زوجته طريحة الفراش بسبب من طبيعة تربتها.

فما كان من الزجاجيَ إلا وأجابه فوراً:

«ربما كان السبب مما أكلته وما تعانيه من غيرة».

أما عن الموسيقيين وسعاة البريد الذين يؤدون عملهم سيراً على الأقدام، فقال فيهم إن جلَ آمالهم وطموحاتهم هي قليلة: فقمة ما يصبو له ساعي البريد هو أن يعمل وهو ممتطٍ جواداً، والموسيقيَ أن يتحقق مراده بالعزف في حضرة الملك.

أما عن السيدات اللاتي يُدعين بالمحظيَات، فكلّ ما يُقال عنهن أن مؤانستهنَ في المجالس تفوق حسن نواياهن

بكثير.
وكان ذات مرة قرب كنيسة ورأى أناساً يحملون ميتاً للصلاة عليه قبل دفنه، ثم تبعه طفل جاؤوا به لتعميده وحضر آخرون لزفاف امرأة، وكلّه تمّ في الوقت نفسه، فعلّق قائلاً إنّ المعابد بدت أشبه بساحات حرب، حيث يغادر الشيوخ ويظفر الأطفال وتنتصر النساء.
وذات مرّة وقف دبّور على رقبته، ولم يقوَ على نشّه مخافة على نفسه من أن يتكسّر، لكنه مع ذلك كان يتذمر. وعندها سأله أحدهم كيف يشعر بلسعات الزنبور وهو يؤكد أن جسده من زجاج. فأجابه أنه لا بدّ أن الزنبور من صنف الوشاة، حيث لسعات ألسنتهم قادرة على ثقب الأجساد المصنوعة من البرونز، فما بالك وجسدي من زجاج.
ومرّ على حلقته رجل دين بدين جداً، فقال له أحد المنصتين له:
«لا يستطيع أبونا التحرك من شدة نحوله».
فغضب منه الزجاجي وردّ عليه قائلاً:
«لا ينس احدكم ما قاله الروح القدس: لاَ تَمَسُّوا مُسَحَائِي، وَلاَ تُسِيئُوا إِلَى أَنْبِيَائِي»(27).
وصاعد من غضبته وهو يزيد في أقواله: «لو راجعتم معي ما جرى للكثير من القديسين في الأعوام الأخيرة، وتمعنوا بعدد الطوباويين، لن تجدوا بينهم من يحمل رتبة قبطان أو سكرتير جهة ما أو كونتيساً أو ماركيزاً أو دوقاً، بل فقط صفة الأخ، أخ فراي دييغو أو فراي خاثينتو أو فراي رايموندو، أخوة ورجال دين فقط، ذلك أن رجال الدين هم زينة السماء وفاكهتها القدسية على مائدة الرب تعالى.
وقال ايضاً إنّ بعض ألسنة الوشاة عتية مثل ريش الصقور: توهن بقية الطيور المجاورة لها وتضعف قدرتها على الطيران.
وعن أصحاب مواخير المراهنة والمقامرين كان يقول العجب: وهو أنهم لا يقومون بواجبهم أبداً ويتعدّون على حدود الآخرين، وهم لا يقتنعون بحصتهم من الأموال عن كلّ لاعب، يقومون بالتآمر مع آخرين لاقتسام الغنيمة. وأثنى كثيراً على المقامر في صبره وسهره في كلّ ليل اللعب، وما أن يرى انسحاب الآخر حتى يتلوى بألم وبحركات شيطانية وكأن أحدهم قد خيّط له فمه وسينتقل شهيداً على خطى باراباس(28).

كما أنه أشاد بنزاهة وشرف أصحاب تلك الأوكار وهم يديرون أركان البيت بمهارة حتى يستطيع الآخرون اللعب براحة. فهم يتلاعبون بالنار دونما وجل أو خوف، وكل آمالهم أن يحصلوا بطرق شرعية أو غير شرعية ما يملأ جيوبهم بالمال دون التفكير في كونه حراماً ورجساً.

على العموم كان توماس الزجاجي يقول هذه الأشياء وأخرى غيرها يدعمها بصراخ متعالٍ مستغيثاً في ما لو مسّه أحدٌ أو تقرّب منه بشر، وطريقة أكله المشددة ونومه في العراء صيفاً وفي كومة قش في الشتاء، تقول لولا كلّ أمارات الجنون هذه، لما شكّ أحد من المُنصتين له أنه من أكثر خلق الله حصافة ونباهة.

طال مرضه لمدة سنتين أو أكثر قليلاً، حتى حمله أحد رجال الدين من طريقة القديس سان خيرونيمو، وهو المعروف عنه قدرته العالية في معالجة البُكم ومساعدتهم بتعلم النطق، وله طرْقه المتبعة مع المجانين. لهذا أخذ على عاتقه احتضان توماس الزجاجي، متحركاً بدافع الشفقة والعطف. فكان أن عالجه وشفاه من نوبات جنونه وأعاد له حضوره وهيأته السابقة.

وعندما رآه صحيحاً كلياً، ألبسه من جديد ملابس رجل القانون، وطلب منه التوجه لمدينة البلاط حيث أنهم هناك ما أن ينتبهوا لرجوعه إلى رشده فسوف يكون قادراً على العودة لعمله والنجاح فيه.

وعلى هذا الأساس غيّر توماس المحامي لقبه من روداخاس إلى رويداس (29)، وعاد إلى المدينة حيث قلّة من المحامين يعملون فيها. وعندما رآه الصبية وتعرفوا عليه وجدوه مختلفاً في حاله ولباسه، لذا لم يقوموا بما اعتادوا عليه من الصراخ وتوجيه الأسئلة له، لكنهم تبعوه أيضاً والواحد منهم يخبر الآخر:

«أليس هذا هو المخبول الزجاجي؟ أقسم أنه هو! ها هو قد عاد إلى رشده. لكن من الممكن أن يكون مجنوناً سواء في ملابسه القديمة أو في الملابس الجديدة. لنسأله عن شيء ما ونخرج من شكوكنا».

وكلّ هذا كان يسمعه توماس ويصمت إزائه لأنه كان مرتبكاً ومحتاراً أكثر من ذي قبل.

ثم انتقل خبر عودته من الفتيان إلى بقية أهل المدينة. وقبل أن يصل فناء مجلس القضاء، كان يتبعه ما لا يقلّ عن مائتي شخص من شتى المهن والمراتب. ومع

هذه الصحبة التي تفوق تجمع الطلبة حول أحد أساتذة الجامعة، وصل إلى الفناء حيث طوقه مجموعة منهم. ولمّا رأى هذه العصبة تحيط به من كلّ صوب، توجه لهم بالكلام قائلاً:

«يا سادتي، نعم أنا هو الرجل الزجاجي، ولكن ليس ذلك الذي اعتدتم عليه. أنا هو آخرُ وأدعى الآن المحامي رويداس. تحدث أشياء عصيبة في هذه الدنيا بإرادة السماء، وقد قضت إرادة الرب أن أفقد رشدي لمحنة تعرّضت لها، وشاءت رحمته أن تعود لي قدراتي الذهنية. ولقد قلت أشياء وأنا في حالتي المتدهورة تلك عن أسئلة كنتم تطرحونها عليّ، ويمكنكم أن تقوموا بمثلها وأنا في حالتي العادية اليوم، ولن يتغيّر شيء عمّا نصحتكم به. وكما تعرفون أيها السادة أنا خرّيج قانون من جامعة سلمنكا، درستُ فيها وبرعت رغم فقري وعوزي، وقد برعت فيها وحللت ثانياً على دفعتي إذ كما تعلمون أن المركز الأول يُمنح لأصحاب النفوذ والجاه. واليوم عدت لمهنتي وجئت إلى مدينة البلاط لأمارس المحاماة وأكسب لقمة عيشي. وإن لم تتركوني في حالي لأمارس عملي المقبل، تكونوا قد حكمتم عليّ بالموت مسبقاً. لذا أتوسّل بكم باسم الرب أن لا تقوموا بتتبّع خطواتي لأنه حينها سأفقد وأنا عاقل ما كنت كسبته وأنا مجنون. أما ما كنتم تسألونني عنه من أسئلة في الساحات، فيمكنكم توجيهها لي هنا وأنا في بيتي، عندها سترون أنني سأجيبكم عنها على خير وجه».

فسمع منه البعض وتركه البعض الآخر. وعاد إلى منزله رفقةَ عددٍ أقلّ بكثير مما تبعه سابقاً.

خرج في يوم آخر ووجد الحال على ما هو عليه، فقام بخطبة أخرى ولم تنفع أيضاً.

كان يخسر الكثير ولم يكسب شيئاً. وعندما رأى انه سيموت جوعاً، فكّر بترك مدينة البلاط والعودة إلى الفلاندس، حيث يمكنه كسب لقمة عيشه بقوّته بدلاً من علومه التي درسها.

وهو ما قام به، وعندما غادر البلاط قال:

«إيه يا عاصمة البلاط، تمنحين المتبجحين الوقحين وتقطعين جذور المتطلّعين الطامحين، وتتكفّلين بسخاء للّصوص المتجاسرين المحتالين، وتقتلين جوعاً الأوفياء الزاهدين».

قال قوله ذلك وسافر إلى الفلاندس حيث أنهى حياته حاملاً للسلاح بدلاً من الارتكان إلى نعمة الآداب والعلوم، إذ أمضى أيامه رفقه صاحبه الفارس بالديبيا، قبل أن يخطفه الموت وقد كتب صفحته الأخيرة كجندي باسل ومغوار.

(تمت)

مختصر حياة وأعمال ميغيل دي ثربانتس سابيدرا

١٥٤٧ ولادته في قلعة إيناريس (قلعة عبدالسلام عند العرب)، من عائلة مشكوك بأصولها المسيحية، أغلب الظن أنها عائلة يهودية متنصرة، وإن كانت العائلة وثربانتس نفسه يرفضون رفضاً قاطعاً كل الحجج والبراهين على ذلك.

١٥٥٢ تنتقل عائلته حتى بلد الوليد وراء حظوظ أشغال الأب، وهو الذي يمتهن أوضع مهن الطبابة آنذاك حجّاماً ومداوياً.

١٥٦٦ بعد حياة فقر مريرة تعود العائلة إلى مدريد لتستقر فيها نهائياً، أملاً بحياة أفضل.

١٥٦٨ يداوم في أوقات فراغه في التعليم المجاني. على الرغم من أن ثربانتس لا يحظى بتعليم جامعي، إلا أنه يُعتبر من تلاميذ عالم الإنسانيات المعروف لوبث دي أويوس.

١٥٦٩ ينشر أشعاره الأولى في أنطولوجيا شعرية بإشراف أويوس نفسه. لا يجد منفعة في الشعر ولا يجد عملاً مناسباً، فيلتحق جندياً في فصيل ميغيل مونكادا. وكان شقيق له أكبر منه قد التحق قبل ذلك في الأسطول الإسباني الحربي.

١٥٧٠ يشارك في معركة (ليبانته) المعروفة والتي ينتصر فيها الأسطول الإسباني على الأتراك. يُجرح ثربانتس في المعركة وتصاب ذراعه اليسرى بجراح بالغة تصيب فيها اليد بالشلل وإن لم تقطع عن جسده. من هنا سيُسمى بالأقطع (الأكتع).

١٥٧٥ بعد أربعة أعوام يمضيها في معسكر حربي في نابولي، يرجو العودة إلى إسبانيا ويوافق على رجائه. بل يتحصل على رسائل تزكية من أعلى المراتب تقديراً لتفانيه وخدمته. يقع أسيراً هو ومن معه بيد القراصنة الأتراك والجزائريين.

١٥٨٠ بعد خمسة أعوام أسيراً لدى حكام (دايات) الجزائر، يُطلق سراحه ويرجع إلى بلده إسبانيا، بعد أن تجمع عائلته فديته مع مساعدة جمعيات إنسانية أخرى. هذه الأعوام الخمسة التي أمضاها في مدن الجزائر الساحلية ستكون مؤثراً كبيراً على شخصيته وأعماله الأدبية.

١٥٨٤ يقوم بعرض أعماله المتعلقة بتجربته في الجزائر مثل (معاهدات الجزائر) و(حمامات الجزائر). ينشر كذلك عمله الأدبي الناضج (نومانثيا). ويتزوج بكاتالينا سالاثار.
١٨٨٥ ينشر عمله الرعوي المعروف (غالاتيا)، ويكتب أعمالاً كوميدية مستوحاة من حياة الاتراك والمسلمين مثل (معاهدة قسطنطينية) أو (موت سليم) اللذين فُقدا ولا يعلم عنهما شيء.
١٥٨٧ يُعيَّن عضواً في الحلقة الأدبية المدريدية بعد نجاحه بإثبات نفسه ككاتب. يحصل على عمل كجابي ضرائب رسمي. وهو العمل الوحيد الذي سيحصل منه على مورد ثابت نوعاً ما، ولكنه سيودي به إلى السجن بسبب وشايات عن أعمال مريبة ونقص في التحصيلات. سيمضي فترة في السجن ليُطلق سراحه ويبرأ من التهم الموجهة له.
١٦٠٥ يظهر في مدريد الجزء الأول من رائعته الروائية (الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانشا). الجزء الثاني من الرواية سينتظر النشر حتى عام ١٦١٥ وهو عام ظهور أوّل طبعة منه. الرواية تطبع عشرات الطبعات وتترجم وتضع ثربانتس في المراتب الأدبية الأولى في الآداب الإسبانية والأوربية.
١٦١٣ ينشر عمله المعروف (روايات مثالية) وهي ١٢ رواية قصيرة.
١٦١٤ ينشر عمله الروائي الشعري (سفر إلى بارناسو).
١٦١٥ يقوم بجمع ونشر أعماله المسرحية الكوميدية الطويلة والقصيرة منها.
١٦١٦ يموت فقيراً في مدريد ويدفن في دير وكنيسة الراهبات ترينارياس دسكالثاس وسط العاصمة القديمة.

نبذة عن المترجم

الدكتور عبد الهادي سعدون (بغداد ١٩٦٨). مقيم في إسبانيا منذ عام ١٩٩٣. كاتب وأكاديمي ومترجم وناشر. دكتوراه في الآداب والفلسفة من جامعة مدريد. حاز عام ٢٠٠٩ على جائزة الإبداع الأدبي (جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية في إسبانيا) عن كتابه الشعري (دائماً)، جائزة مدينة سلمنكا عام ٢٠١٦ عن مجمل أعماله الأدبية، وجائزة صندوق الشعر العالمي في مدريد ٢٠١٦. كما سبق وحاز على جائزتين عربيتين في قصة الأطفال ورواية الخيال العلمي. كمترجم نقل من الإسبانية إلى العربية أكثر من ثلاثين كتاباً لأهم أدباء إسبانيا وأميركا اللاتينية مثل ثربانتس، بورخس، أنطونيو ماتشادو، رامون خمينث، لوركا، آلبرتي وغيرهم. كما نقل من العربية للإسبانية ثلاث أنطولوجيات شعرية عربية معاصرة في الأعوام ٢٠٠٣، ٢٠٠٦ و٢٠٠٨. من بين كتبه الأدبية: اليوم يرتدي بدلة ملطخة بالأحمر ١٩٩٦، تأطير الضحك ١٩٩٨، انتحالات عائلة ٢٠٠٢، عصفور الفم ٢٠٠٦، حقول الغريب ٢٠١٠، مذكرات كلب عراقي ٢٠١٢، توستالا ٢٠١٤، وتقرير عن السرقة ٢٠٢٠.

---

(1) كان الكثير من الشباب الفقراء المتطلّعين للدراسة يعمدون -كتقليد سائد آنذاك- للعمل خدماً لدى الطلاب الأثرياء، وهذا ما نراه أيضاً في رواية بوسكون (الصعلوك بابلوس) للكاتب الإسباني (كيبيدو Quevedo)، إذ عمل في خدمة دييغو دي ثونييغا في جامعة ألكالا.

(2) ما يرتديه طلبة الجامعة آنذاك من زي موحد، وكان يُطلق على مرتدي هذا الزي لقب capigorristas أي طالب علم لم يحصل بعد على شهادة التخرج.

(3) إشارة للحملات العسكرية الإسبانية في مدن إيطاليا ومنها مدينة نابولي وغيرها، والتي شارك في واحدة منها ثربانتس نفسه.

(4) يوردها ثربانتس باللغة الإيطالية.

(5) الجزء الفلامنكي من بلجيكا، في تلك الفترة كانت مقسمة ما بين بلجيكا وفرنسا وهولندا.

(6) شاعر غنائي مشهور (1536 - 1503).

(7) باخوس أو باكو، وأيضاً ديونيسوس: إله الخمر في الميثولوجيا الإغريقية.

(8) لوكا، مدينة صغيرة تقع حوالي 65 ميلاً إلى الغرب من فلورنسا. في عام 1546، تعرضت للتهديد بالغزو من قبل توسكانا، ووضعت نفسها تحت حماية فيليب ملك إسبانيا. وهذا ما يُفسر

مشاعر أهلها اللطيفة تجاه الإسبان.

(9) يذكر لوقيانوس في إحدى حواراته أن نحاتاً (ربما يكون فيدياس) استنتج حجم أسد من حجم مخلبه، وما يعنيه ثربانتس هنا هو أن بطله استنتج عظمة روما من عظمة تفاصيلها الصغيرة.

(10) Agnus dei الاسم اللاتيني لميدالية حمل الرب الأيقونية المباركة، التي تحمل على أحد وجهيها صورة الحمل الذي جاء في كلام يوحنا للمسيح: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ». يوحنا (29:1).

(11) تمثال للسيدة عذراء لوريتو في سانتا كازا في لوريتو، مقاطعة أنكونا بإيطاليا، تُنسب إليه بعض المعجزات. يزوره آلاف الحجاج سنوياً.

(12) بشارة العذراء، كنيسة البيت المقدس في لوريتو، والمشهور بأنه المنزل الذي عاش فيه يسوع المسيح مع أمه، ويُشاع أن الملائكة نقلته من الناصرة إلى إيطاليا عام 1294.

(13) Calipso: كاليبسو، في الميثولوجيا اليونانية، هي الحورية التي احتجزت حطام السفينة أوليسيس لمدة سبع سنوات في جزيرتها (أوغيغيا). وهنا يشبه ثربانتس انجذاب توماس لمدينة فينيسيا كمثل احتجاز الكاليبسو للحطام.

(14) Asti في بيدمونت، شمال غربي جنوة.

(15) لا يختلف ثربانتس عن أبناء زمنه في الاعتقاد بأن النساء المسلمات الموريسكيات يمارسن السحر والشعوذة، مثله مثل محاكم التفتيش البغيضة.

(16) تلّ عالٍ في روما متكوّن من أنقاض الحجارة وكسر الفخار والقرميد.

(17) وردت في الأصل باللاتينية، وهي على لسان عيسى المسيح. إنجيل لوقا (23:28).

(18) مسيحيون لاتجري في عروقهم دماء موريسكية أو يهودية.

(19) إشارة إلى كون الرجل الآخر يهودياً.

(20) القصد منها عاصمة البلاط مدينة بلد الوليد.

(21) إشارة مؤكدة على ما عانه الموريسكيون من الطرد والتهجير.

(22) وردت العبارة كاملة باللاتينية.

(23) الكلمة Banco بالإسبانية تحتمل المعنيين: البنك والمسطبة ومنها يتلاعب ثربانتس بالجملتين.

(24) وردت كلها باللاتينية.

(25) إشارة لما ورد بشأن قصة نعمان السرياني في سفر الملوك الثاني (5:14): «فَنَزَلَ وَغَطَسَ فِي الأُرْدُنِّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، حَسَبَ قَوْلِ رَجُلِ اللهِ، فَرَجَعَ لَحْمُهُ كَلَحْمِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ وَطَهُرَ». والمعنى المراد في الرواية هو أن يعود الشيخ صبياً.

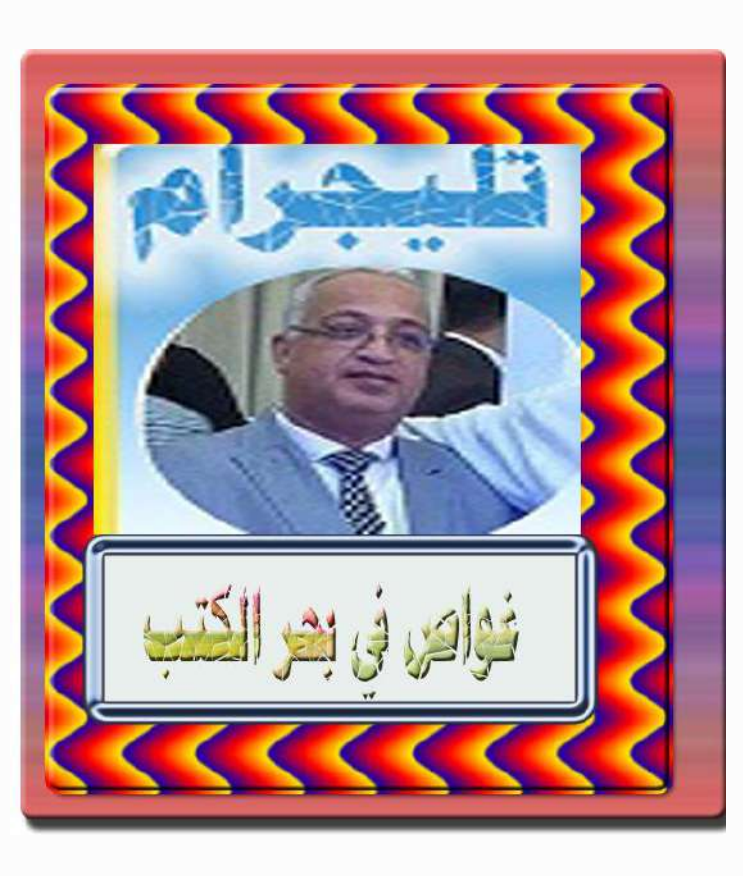
(26) سفر يشوع بن سيراخ (10:5) من القرن الثاني قبل الميلاد.

والآية وردت باللاتينية.

(27) سفر المزامير (105:15) وقد أوردها باللاتينية.

(28) باراباس: المجرم الذي أعتق وحلّ المسيح محله في الصلب. (من الصعب التفريق بين سخرية وجدية ثربانتس في كلّ رواياته وحواراته، سواء هنا في هذه الرواية أو في أماكن أخرى، وعلى كلّ قارئ استخراج رأيه وما يراه في كلّ فقرة).

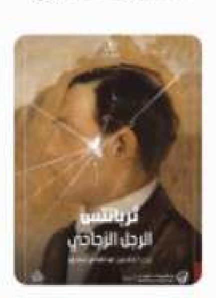
(29) في الدون كيشوت، وهو على فراش المرض بعد أن رجع لصوابه عاد لاستخدام اسمه الأصلي وهو (كيخانو). أما صاحبنا هنا فيغير اسمه الأصلي الذي عرفه به ناس المدينة عندما كان مجنوناً بآخر مبتكر جديد.



انتهيت من قراءة كتاب:

الرجل الزجاجي

منشورات تكوين



قيم الكتاب

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

